المنهج السيميائي بين اكراهات الفكر الحداثي وخصوصية التوسع الاجرائي

أ. د فايزة يخلف
كلية علوم الإعلام والاتصال
جامعة الجزائر

تشير المعاينة الأولية لحدود المشروع السيميائي، إلى ما يشبه ظاهرة تمفصل وظيفي بين تخريجات الفكر الحداثي وإفرازات العالم الموازي الذي أصبحت تفرضه التقانات الشبكية الحديثة كعالم نوعي يقوم في الأساس على مبدأ الافتراض الرقمي، وبين العدة الإجرائية والجهاز المفاهيمي القادر على استيعاب اكراهات الوعي النقدي التجديدي الملازم لحدود هذا التطور اللامتناهي.

ان هذا الاستشكال الابستيمولوجي الذي يروم بحث ومساءلة البنى القيمية والرمزية الكامنة في ثنايا الخطابات الوسائطية الحديثة، يضعنا أما حقيقة إلزامية رفض طروحات الأنساق المغلقة التي تتبنى التوحيد المستمر لما هو متعدد مقابل فحص المنطلقات الأساسية والتنقيب عن المحددات المنهجية التي تنبني عليها فكرة السيميوزيس كمعطى عام يختزل الامتدادات والانزياحات المتنوعة للفعل الدلالي.

مقدمـة

يتسم التفكير السيميائي – بمعناه العام – بكونه انشغال على ابستيمولوجي يشمل كل عملية تأمل للدلالة أو فحص لأنماطها أو تفسير لكيفية اشتغالها، سواء من حيث شكلها وبنيتها أو من حيث إنتاجها واستعمالها وتوظيفها، فلا ريب أنه تفكير موسوعي يتوخى استنطاق الرموز التي تأثث للأجواء المحيطة بالإنسان. وتلزمه باستنفار كل طاقاته التعبيرية والتفسيرية والتأويلية لفهم حدودها الدلالية.

وقد فتحت هذه التصورات الاستفهامية المتباينة الطريق أمام اجتهادات علمية حاولت تلمس مسارات البحث المنهجي في مقاربة كل استشكال علمي على حدة، وفي الإلمام بالعدة

الإجرائية التي تختصر فعل معاينة وتشريح قضايا التواصل الإنساني.
إن الإشكال الذي تطرحه أنساق التواصل، الوسائط والمعارف يظل المحور الأهم في استيعاب بنية الإنسان المعاصر: سلوكا، تجربة وفكرا، فقد استأثرت قضايا التواصل وأشكاله باهتمام علوم مختلفة من حيث الوصف والتقويم: الوسائط الجماهيرية، اللسانيات، علم النفس، الفلسفة، علم الاجتماع، علم الحاسوب، الفنون، وغيرها. وهكذا بدأت ترتسم إمكانية صياغة نظرية عامة للتواصل تشمل كل بنيات الإعلام والاتصال والثقافة.
ومفهوم ذلك أن تختزل كل المباحث التواصلية ضمن نموذج تقريبي يشكل القاعدة النظرية لباقي النمذجات المعرفية(1). ومن ثمة نأخذ بالتمييز الإجرائي الذي طرحه الباحثان سبيربر وولسن Sperber & Wilson حيث قارنا بين نموذج لساني وآخر فلسفي، فالنموذج اللساني سنني يقرن التواصل بعملية تركيب الرسالة وتفكيكها من خلال قواعد مشتركة بين أطراف الاتصال، أما النموذج الفلسفي فاستدلالي يشترط في عملية التواصل إنتاج إشارات وتأويلها تبعا لسيرورة ذهنية تقوم على الافتراض والاستنتاج التعارفي بين المرسل والمتلقي(2).
وإذا كان الاختزال الإجرائي لنماذج التواصل يعد أمرا تقريبيا، فإن قضايا المجال التواصلي المتسمة بالتشعب والتداخل تجعل تعميم النظرية يستهدف بالأساس الجوانب الكلية لكل العمليات التواصلية. ولا سبيل في ذلك إلا بتركيز النظر على موقع الإنسان في كل القضايا والإشكالات التواصلية: تحفيز التخاطب، تحريك الجمهور، وتشغيل الوسائط، وعليه نعتبر التواصل الإنساني – من الناحية المنهجية – الإطار العام نظريا وتجريبيا للظواهر التواصلية المختلفة: إن تقنيا أو مجتمعيا أو ثقافيا، مقتفين بذلك أثر مولز Moles الذي يعتبر أن الحديث عن التواصل في جنسه الوسائطي يستلزم بسط الكلام عن طبائع التواصل الإنساني: تشكيلا وتحقيقا وتوظيفا(3). على أن مقاربة التواصل الإنساني لا تعدو كونها وصف للتنظير له وفق توجهين متمايزين متكاملين: اعتنى التوجه الأول بالكشف عن مكونات البنية التواصلية ووظائفها الملازمة، فيما رام التوجه الثاني ضبط المبادئ والقواعد المتحكمة في البنيات المكونية والوظيفية.

وضمن هذا السياق، يتجه التحليل السيميائي للأنساق الاتصالية في إطار ملامسة قضايا الدلالة واستظهار تحليلاتها الوظيفية واستنطاق أبعادها المحاثية.

ولأن السيمياء لا تنفرد بموضوع خاص، وإنما تهتم بكل ما ينتمي إلى التجربة الإنسانية العادية، كانت النماذج التواصلية بكل أشكالها ومستوياتها مجالا بحثيا ملائما لاستكشاف تعالق القوالب اللسانية (التركيبية، الدلالية والتداولية) بالقوالب المعرفية (السياسية، المجتمعية والثقافية).

لقد فتحت السيمياء أمام الباحثين، في مجلات متعددة، آفاقا جديدة لتناول المنتوج الإنساني من زوايا نظر جديدة، بل يمكن القول إن السيمياء – بمقاربها المختلفة – ساهمت بقدر كبير في تجديد الوعي النقدي من خلال إعادة النظر في طريقة التعاطي مع قضايا المعنى.

وقد أطلق على هذه الرؤية المنهجية ما بعد الحداثية مسمى "التحليل السيميائي" الذي يروم مساءلة البنى القيمية والرمزية الكامنة في ثنايا الخطابات الاتصالية(4) ورصد المقولات الدلالية التي تؤسس لقضايا انفتاح النصوص ورفض طروحات الأنساق المغلقة التي تقوم بعمليات توحيد مستمر لما هو متعدد.(5) إن الخوض في إشكالات التواصل عموما، يقتضي منهجيا الاستناد إلى معطيات التحليل السيميائي الملازم لخصوصيات البنيات الوسائطية والثقافية ولعل الداعي الذي دعانا إلى ذلك داعيان أساسيان: تفصيلي وتأصيلي

أما الحافز التفصيلي، فهدفه الإلمام التقريبي بمجال تطبيق السيميائيات العامة والنوعية حتى يتضح طرحنا فيما يخص آليات تحليل الاتصال الوسائطي بمختلف تمظهراته، علما أن النظرية السيميائية تمتاز بكونها فضاء لتعدد القراءات واختلاف الظواهر، اذ تمتد منهجيا من مساءلة الألفاظ إلى تقويم الحركات والصور بمختلف تجلياتها والطقوس وغيرها، كما تمتد من حيث تطبيقاتها لتشمل المسرح والمعمار والشعر والسينما والإعلام...(6)

وأما الحافز التأصيلي، فمرماه المساهمة في انفتاح الدراسات الاتصالية والإعلامية ومختلف مظاهر الثقافة على تصورات تحليلية مغايرة لمعايير تحليل المضمون الأمبريقي وسبله المنهجية كما سادت لفترة طويلة في الساحة الثقافية العربية والغربية.(7)

1- من تحليل المضمون إلى التحليل النسقي للخطاب:

لقد خضعت إنتاجات الوسائط الإعلامية الجماهيرية في الدراسات التقليدية لأوصاف خارجية تعالج الظواهر في علاقاتها المباشرة بالمجتمع، التاريخ والثقافة(8). فلزم عن ذلك انحصار الاهتمام في مساءلة التجليات السطحية للمضمون الإعلامي، وفي صياغة توجهاته الإيديولوجية بناء على معطيات إحصائية.(9)وهكذا شكلت المساءلة العامة للجوانب الخارجية المحور الأساسي في المقاربات التقليدية للخطاب الإعلامي والتواصل الجماهيري.

بناء عليه، لم تتعد المقاربات التقليدية للوسائط الإعلامية الكشف عن مختلف الجهات التمثيلية للمؤسسات التواصلية: مجتمعيا وثقافيا. وانسجاما مع هذا التصور، اعتمدت - في التنظير كما في التصنيف – المرجعية النظرية والمنهجية للعلوم الاجتماعية بفرعيها: المجتمعي والسياسي(10). ولما تقيدت الملامسات التقليدية منهجيا ونظريا، وجب أن تتقيد بما ينساق مع المنظومة المرجعية من ظواهر إعلامية ومحاور صحافية وقضايا تواصلية(11). وعليه مالت إلى تكثيف البحث في البنيات الكبرى للوسائط الجماهيرية: إطار المؤسسة، طبيعة الجمهور، سيرورة التأثير، الوظائف الإيديولوجية المباشرة وغيرها.

وتقويما للأوصاف التقليدية، برزت مقاربة تحليل المضمون التي اتخذت مكانة بارزة في أبحاث الاتصال الجماهيري، إنها مقاربة إجرائية تتوخى ضبط المضامين المعرفية للنصوص الإعلامية في مستوياتها الدلالية الصريحة، ومن ثمة، ظلت البنيات العميقة مهملة في أدبيات تحليل المضمون إلى أن انطرحت بدائل نظرية تحليل الخطاب التي اعتنت بالاستلزامات النصية والتخاطبية للخطاب الإعلامي(12).

فلنحدد أولا المنهجين التحليليين المختلفين، حتى نتمكن من تبين الحوافز العلمية والمنطقية للانتقال الإجرائي في مقاربات تحليل الأنساق الاتصالية من تحليل المضمون الأمبريقي L'analyse de contenu empirique إلى تحليل المضمون السيميائي Analyse de contenu sémiologique.

2-تحليل المضمون الأمبريقي ودلالة البنيات الكبرى للمحتوى الاتصالي:

لقد وجهت مقاربة تحليل المضمون الأمبريقي جهازها الواصف نحو وسم البيانات الكبرى

للنص الوسائطي. والمقصود بذلك، تركيز النظر على المؤشرات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية الثقافية كما تعرضها المضامين الإعلامية وتطرحها: إن تأثيرا أو تأثرا، على أن آلية هذا التحليل اتصفت بثلاثة أوصاف أساسية: أولها الإسقاط، وثانيها التعميم، وثالثها الإحصاء والتكميم(13).

أما وصف الإسقاط، فيفيد جريان السمات المجتمعية على المضمون الإعلامي، كما يفيد تبعية النص الصحافي للسياق الذي أنتجه إنتاجا انعكاسيا(14).

وأما وصف التعميم، فمفاده اقتصار تحليل المضمون على تناول إشكالات فرعية قد تعمم فرضياتها ونتائجها على قضايا أصلية.

أما وصف الإحصاء والتكميم فنستشفه من التوظيف الكثيف للنتائج العددية والإحصائية التي يسفر عنها تحليل جداول الدراسة.

وما كان لهذه الأوصاف أن تتولد، لولا ميل التحليل المضموني إلى بناء المقولات الإحالية للرسائل الإعلامية الجماهيرية على المستوى الاجتماعي. واستشكالا، لا يستجيب البناء الإحالي إلا للتساؤل عن أسباب إنتاج المضمون الإعلامي، أهدافه وآثاره، لتظل مسألة كيفية البناء شبه مهملة(15).

وعليه، قام تحليل المضمون الأمبريقي بتبئير الدلالات الوسائطية من حيث مواقع إنتاجها ومواقعها الإيديولوجية، وتكراراتها.

وحتى نتبين مرتكزات نظرية تحليل المضمون، لا بد من الحديث عن طبيعة وصف المضامين ونوعية ملامستها، ومتى تبين لنا ذلك أردفناه بالنظر في مراجعة مبادئ المضمون وتجديدها.

أ- آليات وصف المضمون الأمبريقي: إذا كانت نظرية تحليل المضمون الأمبريقي تعمد إلى تثبيت المقتضيات الكبرى للنسق الاتصالي، فإنها تستند في ذلك إلى تشكيل عينات مقصورة ومعالجة معطيات محصورة. ومن ثمة، تقوم آليات هذا التحليل بتمثيل المعطيات إما محوريا من خلال ضبط المواضيع الأساسية التي يطرحها المضمون الاتصالي وإما موضوعيا Thématiquement من خلال تعيين القضايا الدلالية للنص الوسائطي. ذلك ما يشفع في تأويل المعطيات وفق المقتضيات الاجتماعية والثقافية المتضمنة للقيم والمعايير المجتمعية(16).

على أن هذه الخطوات المنهجية تتعمق عبر وسم آليات التحليل المضموني بوصف تجريبي واقعي(17)، ولا يتحقق ذلك إلا باعتماد الإفرازات العلمية للبحث الميداني الذي قد يشكل منطلق تحديد العينات كما قد يشكل سندا للتأويل(18).

وبناء عليه، يتفرع تحليل المضمون الأمبريقي إلى فرعين متكاملين: أولهما التحليل الكمي، وثانيهما التحليل الكيفي.

أما التحليل الكمي Analyse quantitative، فيعتمد آليات صورية ترتكز على إحصاء الوحدات الإعلامية لحصر تكراراتها وتواترها ولذلك يتم استثمار التقنيات الحسابية والقياسية في ترجمة معاني النص الإعلامي إلى معادلات صورية ومجردة(19). ويلزم عن ذلك التصاق الوصف الكمي بالمحاور الصحافية والمواضيع التواصلية من خلال تعدادها في فضاء محدود وزمان مسدود لتشكيل معطيات يتم تأويلها بناء على مولداتها السياسية والاجتماعية والثقافية.

أما التحليل الكيفي analyse qualitative فيستند إلى تأويل المعطيات العددية التي ينتجها التحليل الكمي، وينظر في التجليات السطحية للأساليب الصحافية دون الغوص في التعقيدات المعرفية التي تصفها الأسلوبيات(20). ويعتقد هذا النمط التحليلي أن الذي يشفع له في تسديد تأويلاته وتشييدها يكمن في محصول التحليل الكمي. ومن ثمة، ترتكز التأويلات الكيفية على السند الخارجي الصوري بدل الارتكاز على البنيات العميقة التي تشمل مستلزمات ومقتضيات الوحدات الإعلامية السطحية بدلالاتها الأسلوبية والحجاجية.

بناء على ما سلف، يمسي التأويل مجرد آلية لإسناد المعاني وإعراب الدلالات: بنيويا أو إيديولوجيا، مما قد ينتج عنه حصر دلالات النسق الاتصالي في قصد أحادي مغلق.(21)

في مثل هذه الحالة، تصبح القراءة المضمونية أحادية البعد لا تستجيب لرمزية القضايا الاتصالية المحورية. وعليه، ترتبط التأويلات الأحادية بالمحاور الاتصالية عبر علاقات سببية وروابط لزومية(22).

تلكم إذن، المحددات المنهجية لتحليل المضمون الأمبريقي كميا وكيفيا. غير أن مستجدات العلوم الحديثة ومستحدثات المعارف المعاصرة أجبرت الباحثين في مجال الاتصال على إعادة

النظر في هذه المحددات بحثا عن كفاءة وضعية جديرة بالاعتماد الإجرائي.

ب- نحو تجديد المبادئ والتصورات التقليدية: لن ندعي إطلاقا بأن تحليل المضمون الأمبريقي:نظرية ومنهجا قد زاغ عن مسار الرصانة العلمية ولكنه جهاز إجرائي ركز في ملامسته لقضايا الاتصال الجماهيري، على الجوانب الموضوعية والكمية في وصف النصوص الإعلامية، وهي عناصر أولية فقط تستخدم كمداخل منهجية لفهم العلاقات الخفية والروابط المضمرة التي تقود إلى استنطاق الأبعاد الإيديولوجية والسياسية والثقافية لمضمون الخطاب الإعلامي.(23)

ذلكم ما حفز بعض العلماء والباحثين في ميدان الاتصال الجماهيري، على تجديد النظر في مبادئ تحليل المضمون الأمبريقي وفي مقولاته المنهجية وهكذا برزت محاولات سديدة لتقويمالمسارات الإجرائية وتكييفها مع مستجدات العلوم والمعارف المعاصرة ولعل أهمها المحاولات الجماعية: مجموعة الوسائط لجامعة غلاسكو Glasgow university media group، مركز الدراسات الثقافية المعاصرة Centre for contemporary cultural studies، ومركز بحث الاتصالات الجماهيرية Mass Communications Research (Center(24

فإضافة إلى التعديلات التي مست التقنيات الإحصائية والمعايير القياسية في الحيز الكمي جدد تحليل المضمون حيزه الكيفي من خلال تعميق وسائله في استقراء البنى التركيبية والوظيفية للنصوص الإعلامية.

وهكذا، شكل الخطاب الإعلامي في التصوير التجديدي نسقا نصيا يعيد إنتاج وجهات النظر السائدة عن الإنسان، المجتمع والثقافة، وقد لزم عن ذلك التوجه محاولة فهم الأبعاد الإيديولوجية لمضمون الخطاب.

من جهة أخرى، سعى تحليل المضمون الأمبريقي إلى تقريب لغته الواصفة من الجهاز الإجرائي لتحليل الخطاب من خلال اتباع مسارات الوصف التمثيلية والتأويلية للبنيات المحورية والدلالية، غير أن هذا التقريب لا يفيد - في نظر الكثير من رواد التحليلات السيميولوجية(25) تجديدا فعليا لإجرائيات التحليل المضموني، بل يعتبر برهانا على ما حققه

منهج التحليل السيميائي من جدارة معرفية وسيادة علمية.

3- الوسم الوظيفي لمنهج التحليل السيميائي:

تجاوزًا لنقائص تحليل المضمون الأمبريقي، لجأ باحثو الاتصال الجماهيري إلى اقتناص المناهج الأدبية واللسانية والسيميائية لفحص مضامين وأشكال النصوص الاتصالية، فإذا علمنا إهمال التحليل المصغر في معظم الأبحاث التقليدية نتيجة أوصاف: الإسقاط والتعميم والإحصاء، اتضح لنا الدافع إلى الاعتناء بالبنى العميقة للخطاب، عبر تخصيصها واستنباط دلالاتها.(26) وفي هذا المقام، فإن تفكيك عناصر النسق الاتصالي واستنطاق معانيه الضمنية يقتضي الاعتماد على منهج التحليل السيميائي الذي يقوم على مفهوم النسق système، الآنيةsynchronie والدليل أو العلامة (اللغوية أو الصورية) 27)signe)، وبهذا الثالوث يرتبط هذا المنهج الذي يعد من أهم طرق البحث الكيفي

28)méthodes qualitatives d'études) أصوليا بالإرث البنيوي الذي اعتمدته مختلف العلوم الإنسانية (الأنثروبولوجيا، علم النفس، السوسيولوجيا، الأدب...) في الوصول إلى نتائج علمية لم تكن لتبلغها لولا اعتماد هذا الأسلوب العلمي(29).

وبهذا السياق المرجعي يكون التحليل السيميائي أفضل نهج يسلط الضوء على الآليات التي تنتج من خلالها المعاني في المضامين الإعلامية والاتصالية، ويكشف عن العلاقات الداخلية لعناصر النسق، ثم يعيد تشكيل نظام الدلالة بأسلوب يتيح فهما أفضل لوظيفة الرسالة الإعلامية داخل النسق الاتصالي. وقد بينت الباحثة Julia Kristeva الغرض من التحليل السيميائي قائلة: هو مجموعة التقنيات والخطوات المستخدمة للبحث في صيغ اكتمال حلقة الدلالة في نسق معين، هو الأسلوب العلمي الذي يكشف، يحلل، ينقد المعنى في نظام ما، ينتقد أيضا العناصر المكونة لهذا المعنى ولقوانينه(30)، وبهذا يختلف منهج التحليل السيميائي عن تحليل المحتوى الأمبريقي الذي أثبت تراجعه في البحوث المعاصرة، إذ تأكد أنه لا يستهدف فهم ميكانيزمات المعنى، بقدر ما يسعى لجمع مؤشرات Indicateurs دالة لفهم محتوى الرسالة(31).وهو ما جعل تحليل المحتوى يظل مجرد وسيلة وليس غاية، ويؤكد هذا الطرح لويس باردن Louis Bardin في قوله: "تحليل المحتوى هو مجموع التقنيات لتحليل

الرسالة الإعلامية، لا يتعدى هدفها وصف محتوى الرسالة وصفا كاملا لاستخراج Inférer معلومات متعلقة بظرف إنتاج وتلقى condition de production et de réception هذه الرسالة(32).

ومتى تبين لنا أنه لا جدوى كبيرة في أساليب تحليل المضمون إلا بتعيين السبل في معرفة التدليل التخاطبي وتخصيص المسالك القياسية لفهم المحتوى الاتصالي، تبينت معه أهمية التحليل السيميائي الذي يعمل على تقرير أوليات تخص بنيتين متمايزين متفاعلين: أولهما كلية، وثانيهما خصوصية، أما البنية الكلية، فتتنوع نوعين رئيسين: يتشكل النوع الأول من مجموع المبادئ العامة التي تتحكم في طبيعة الخطابات: الخطاب الصحافي، السياسي، الأدبي، الفني، الثقافي... وغيرها كثير، بينما يتكون النوع الثاني من المبادئ الشاملة الموجهة للنصوص عبر الحقولية: المسرح، السينما، التلفزيون، الجريدة وغيرها. وأما البنية الخصوصية، فتنهض بالخاصيات المتمثلة في القواعد الخطابية التي تولد خطابا معينا وفقا لآلياته الذاتية كأن نمسك بالنسق القاعدي للمسرح وحده أو الإذاعة أو التلفزيون أو الأشكال غير اللفظية الأخرى(33). إن ما يبرر هذه الاستراتيجية انفتاح منهج التحليل السيميائي على علوم متنوعة: علم الأناسة، علم التاريخ، علم النفس، علم الاجتماع، الأنثروبولوجيا... وغيرها(34).

4-مرتكزات التحليل السيميائي:

لا بد لكل من جرد نظره في السيميائيات أن يلمس تعدد توجهاتها وتنوع خلفياتها وتفرع حقولها، مما يشكل حافزا حركيا على تعميق إشكالاتها وتنسيق مقارباتها وتدقيق مفاهيمها، ومتى لامسنا الحقل العلمي للدلالة، استبان لنا ما قررناه من تعدد نظري وثراء مفاهيمي35)conceptuel) للدلالة الوظيفية للسيميائيات.

ولأن السيميائيات تنبني منهجيا على خطوتين إجرائيتين وهما: التفكيك والتركيب قصد إعادة بناء النسق الاتصالي من جديد وتحديد ثوابته البنيوية، ارتكز التحليل السيميائي على ثلاثة مبادئ أساسية، هي:

أ. تحليل محايث Analyse Immanente: نقصد بالتحليل المحايث البحث عن الشروط الداخلية المتحكمة في تكوين الدلالة وإقصاء المحيل الخارجي. وعليه، فالمعنى يجب

أن ينظر إليه على أنه أثر ناتج عن شبكة من العلاقات الرابطة بين العناصر(36).
وتأسيسا لما سبق، تروم الإجراءات التحليلية للسيمياء توليد أجهزة واصفة للنصوص والخطابات، وهو ما يجعل استراتيجيتها المركزية تذهب في اتجاه بلوغ الكفاية الوصفية في تحليل الأنساق الدلالية. والأهم هنا، أن التحليل السيميائي – كممارسة وصفية محاثية في مجال تحليل الخطاب – تمكن من توسيع معطيات المقاربة للنصوص اللفظية وغير اللفظية: وبهذه الكيفية نهضت المقاربات السيميائية بتوسيع المعطيات الخطابية، بقدر تعميقها للأجهزة الواصفة(37).

ب. تحليل بنيوي Analyse structurale: يكتسي المعنى وجوده بالاختلاف وفي الاختلاف، ومن ثم فإن إدراك معنى الأقوال والنصوص يفترض وجود نظام مبني structuré من العلاقات، وهذا بدوره يؤدي بنا إلى التسليم بأن عناصر النص، لا دلالة لها إلا عبر شبكة من العلاقات القائمة بينها، ولذا فإن الاهتمام بالعناصر لا يكون إلا من منطلق دخولها في نظام الاختلاف تقييما وبناء(38).

يضعنا هذا الأمر أمام تقابل جديد يصف العلاقة بين المعنى Le sens باعتباره مادة، وبين الدلالة La signification باعتبارها شكلا لهذا المعنى ومشتقة منه، ولهذا فإن ما تدرسه السيميائيات، ليس جواهر مضمونية مكتفية بذاتها: إنها تدرس على النقيض من ذلك، أشكالا مضمونية، وهي ما يشير إلى التحققات الممكنة للمادة الأصلية، (ما نعرفه عن الجمال ليس مادة، بل أشكال تتحقق في الصيغ التي من خلالها يتم تجسيد فكرة الجمال).

وهو ذات الاستقطاب الثنائي الذي نجده في التراث العربي ممثلا في الفرق بين "المعنى" و"معنى المعنى". فالكلام عند عبد القاهر الجرجاني مثلا "على" ضربين: ضرب أنت تصل منه إلى الغرض بدلالة اللفظ وحده وضرب آخر يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة. ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها إلى الغرض.

فالمعنى الأول كما يتجلى من خلاله فعل الإحالة الأولى هو الإحالة المباشرة التي تتم داخل العلامة وبشكل مباشر، أما معنى المعنى، فهو الدلالة التي تشير إلى السياقات الممكنة التي تشمل عليها العلامة(39).

وتلك هي المنطلقات الأساسية التي انبنت عليها فكرة السيميوزيس أي السيرورة التي تشترطها الدلالات كي تتحقق، فالأصل واحد، أي معنى معطى من خلال لحظة الإحالة الأولى، والامتدادات متنوعة، وهو أمر لا يخص كليات اللسان فحسب، بل يشمل كل ما تنتجه الممارسة الإنسانية من علامات وإيماءات أو كلمات أو طقوس(40).

ج. تحليل الخطاب Analyse de discours: لما اتصفت السيميائيات بالصفة التحليلية، كان أولى أن نستبين مسالكها المنهجية في الوصف والتقويم. وعليه، نلمس – عبر قراءة أولية في الأدبيات المعرفية – أن منحى التحليل السيميائي الأول هو مساءلة الخطاب في شتى تجلياته(41)، الأمر الذي أفرز قطبين يحتذبان الاهتمام الإجرائي للنظرية السيميائية: الأول يجسد النص فيما يمثل الثاني السياق. وهكذا، جاءت الإجراءات التحليلية السيميائية للجمع بين القطبين، ومن ثمة وصل النص بالسياق لتحصيل التفاعلات المولودة للخطاب ضمن المحيط الاجتماعي والثقافي.

وبناء على ذلك، سعت التحليلات السيميائية إلى ضبط التجليات السياقية في البنيات المحققة نصيا، فالتراكيب اللغوية – معجميا وتأليفيا – تحيل بما لها من أسماء وضمائر إلى ميدان مجتمعي ونفسي محدد. على أن التجليات السياقية للخطاب تشتغل تبعا لبعدين متراتبين: بعد محلي مخصص، وبعد شامل معمم.

إن السياق المخصص للخطاب يظهر عبر الملفوظات الجملية من خلال المركبات الاسمية وعناصر الزمان والمكان. ويتكثف التحليل عبر الجملي ليستخلص التمثيلات المعرفية التي تختصر المحددات الثقافية، الاجتماعية والتاريخية(42). من ثمة، يعد السياق بناء ذهنيا للأحداث اللغوية داخل الخطاب النصي. فلا وجود للخطاب سيميائيا إلا بمقولات تدفع إلى تشكيله وتضمن اشتغاله نذكر منها، على سبيل المثال لا الحصر: السمات الملازمة للشخصيات ولأفعالها اللفظية وغير اللفظية، وقد أبرزت ذلك تصورات السيمياء السردية الأدبية.

أما السياق المعمم للخطاب فيتحدد بالعوامل الاتصالية التي توسع دائرة الإحالة لتشمل أوضاع التخاطب ضمن محيط مجتمعي تتفاعل فيه المميزات النفسية للمتخاطبين ومواقفهم

وسلوكاتهم وعلى هذا النحو، يقترن السياق المعمم بما أسمته كمبسن (1975) Kempson الكون الخطابي الذي يغطي المعرفة المشتركة اجتماعيا وثقافيا بين منتج النص ومتلقية كتغطية للاستدلالات الضمنية لكشف المعاني الخفية والسكوت عنها سياسيا ونفسيا(43). وقد لزم عن هذه الوجهة الشمولية، اعتبار اللغة النصية ليس تمثيلا وتجليا معرفيا للسياق وإنما تشكيلا إبداعيا دافعا لإعادة إنتاج المحددات السياقية(44).

وعلى العموم، سدد التحليل السيميائي وصفه نحو ضبط التعالقات النصية السياقية للتواصل الإنساني، مما دفعه إلى الاعتناء بنسق الخطاب في متخلف تمظهراته: المسرحية، الشعرية، السيمائية وغيرها، وهو ما أدى إلى التفاعل عبر الحقولي للسيميائيات كما حدده بنتيلي (1981) Bentele ونوضحه من خلال الخطاطة التالية:

يتضح مما سبق أن التحليل السيميائي، إجراء منهجي يستجمع أركانه الأساسية بناء على مبدإ التكامل بين معارف عديدة، وعلوم سديدة، وهو في ذات الوقت يقارب مختلف أنواع الخطابات. فيحلل اللسانيات الوسائطية المستخلصة من تفاعل السيميائيات، الاتصال واللسانيات، كما يعتني بخطاب الصورة السمعية البصرية سواء كان في شكله السينمائي كما أصله ميتز (1272) Christian Metz أم في مظهره الإعلامي كما بلوره هارتلي (1982) Hartley وفوولير (1991) Fowler أو في صيغته الثقافية كما أوضحه إيفز وينكن Yves Winkin حين أكد على اتساع وشمولية الدراسات التواصلية(45).

وإن أجملنا الأمر، قلنا إن اللغات الوسائطية تتولد وفق نمطين أساسين: أولهما، نمط اللغة اللفظية، وثانيهما نمط اللغات غير اللفظية.

أما اللغات اللفظية فإما أن تكون مكتوبة آو منطوقة من الجهة الإنتاجية وان تكون مقروءة أو مسموعة من جهة التلقي، ويلزم عن ذلك أنها تشمل كل الظواهر السيميائية اللسانية بما في ذلك القضايا الموازية كالتنغيم والنبر والتصويت وغيرها من الأنظمة المساعدة Systèmes auxiliaires (46).

ومن ثمة، ينطبق مفهوم اللغة اللفظية على كل المستويات اللسانية التلفظية التي تتخلل النصوص المكتوبة في الصحف ونصوص الإذاعة والشريط السينمائي والتلفزيوني وكل الأنظمة

التي تتفاعل ضمنها مع أنساق سيميائية أخرى.

وإذا كان الاتصال اللفظي يقوم على أساس الأدلة اللسانية (المعجمية والتركيبية) والأدلة اللسانية الموازية (الصوتية والصرفية)، فإنه في المجال السمعي البصري لا يتقوم خير التقويم إلا بتفاعل مكوناته مع المكونات السيميائية التي هي سند الاتصال غير اللفظي.

وأما اللغات غير اللفظية، فتشمل بنية الصورة وقوتها التعبيرية في كل أبعادها المطبوعة والتلفزيونية والسينمائية، وتدخل في الاعتبار السلوكات غير اللفظية بما في ذلك الحركات الجسدية وتعبيرات الجسم.

وبالمماثلة تنطبق على الأنساق الرمزية التي تشمل مكونات المظاهر الثقافية كالطقوس والأحداث الاحتفالية وغيرها(47)، وقد تتقاطع اللغات غير اللفظية مع الأدلة اللفظية لتصف أنساقها الخطية ترقيما وتصنيفا (الحجم، الموقع، المساحة وغيرها).

بناء على ما قررناه من مبادئ وأدوات إجرائية، فإن التحليل السيميائي هو ذلك الأسلوب أو الجهاز الإجرائي الذي يقارب الخطاب الوسائطي من ثلاثة مستويات متراتبة متفاعلة: التركيبي فالدلالي ثم التداولي، إنها مستويات تحليلية قد تتداخل وتندمج من حيث البنية والوظيفة، ولذلك سنحاول توضيحها وفقا للخطاطة التالية:

فإذا كانت السيميائيات بفرضياتها النظرية والإجرائية قد وهبتنا طرحا نسقيا وعدة تحليلية لمقاربة الوسائط الاتصالية التقليدية، بأنها لم تقف عاجزة أمام مشروع استقصاء دلالات وتخريجات العالم الافتراضي.

5- التحليل السيميائي وعلم الحاسوب Semiotics – Computer Science:

تتحدد المحتويات الرقمية على خلاف مضامين الاتصال التقليدية الأخرى بكونها شكل معلوماتي مولد بالكمبيوتر، مدلولها الكلي يحيل إلى عوالم مرئية تختصر المشهد الكوكبي الراهن وتحيل إلى معاني الفضاء السيبيري Cyber Space بكل أطيافه الدلالية وبكل تمثلاته الافتراضية(48)، إنه نشاط تفاعلي هادف ودال ومتميز ضمن ما يعرف حاليا بسيميولوجيا تفاعل الإنسان – آلة(49).

وتنفرد أنماط هذا الاتصال الجديد بوحدات ومفاهيم وأساليب تنزاح كلية عن نسق التعيين

والتضمين في اختزال كياناتها الداخلية والخارجية المعقدة، إنها سيرورة دلالية متكاملة فرضت مقاربات جديدة في تناول طروحات التقانات الشبكية الحديثة بدءا بالصورة الرقمية وانتهاءا بمختلف تمظهرات التفاعل الإنساني مع الآلة.

وقد أدى الاجتهاد في سبيل البحث عن العدة الإجرائية الملائمة لكل وضع بحثي في مجال السيميائيات الوسائطية الحديثة إلى الاستئناس بمجموعة من الروافد المعرفية مثل نظريات الاتصال الحديثة، نظريات السيبرنطيقاCybernetic، دراسات الثقافة السيبيرية Cyberculture، مجال الذكاء الاصطناعي Artificial Intelligence ودراسات مجال تفاعل إنسان – كمبيوتر 50)Human – Computer Interaction).

بصورة تفريعية إنقسمت هذه الدراسات إلى مباحث علمية مختلفة ومتكاملة، إختص بعضها في مقاربة التفاعلات الرمزية التي تصوغ العلاقة الثلاثية مرسل – رسالة- جمهور، في حين انكبت الانشغالات العلمية الأخرى حول تحليل الصورة الرقمية، الروابط الفائقة والتمثيلات السمعية البصرية الافتراضية والمهارات والكفاءات التي قد تنتج في إطارها(51).

وقد أفرزت هذه الرؤى العلمية الحديثة تصورات فكرية أعادت مساءلة نتائج تحليل الوسائط التقليدية، كيف لا؟ وهي الإسهامات التي قلبت بغض المفاهيم التقليدية، فتحولت بمفهوم الجمهور السلبي والإيجابي َActive & Positive Audienceوانتقلت به إلى ضرورة دراسة المستخدم المتفاعل Interactive Users، ومن الترجمة والتأويل Interpretation إلى دراسات التجربة Experience والخبرات، ومن المشاهدة والإستماع والرؤية Spectatorship إلى دراسات التقليد Immitation وبناء الوقائع وتحرير الخطابات والإنغماس Immersion، ومن دراسة الواقعية Reality إلى بحوث الافتراضية Virtuality، ومن إنسان التمثيلات Representation إلى عناصر وتمظهرات المحاكاة Simulation، ومن وسائل متمركزة Centralized Media إلى وسائل كلية الوجود (أو وسائل التواجد الكلي) Ubiquitous Media، ومن مستهلك المعلومات إلى مساهم مبدع Participant Creator ومنشئ للمحتوى والخطاب الإعلامي.

ومن الأعلام الذين ساهموا في إثراء حقل الدراسات التطبيقية السيميولوجية في مجال تحليل

محتويات وسائط الإعلام الجديدة نذكر:

- جيمس بول جي James Paul Gee:

وهو باحث مختص في اللسانيات والتحليل النصي، قام بدراسة ألعاب الفيديو من منظور لغوي، ثقافي وسيميولوجي. وهو المعروف بمؤلفه مقدمة في تحليل الخطاب Introduction to discourse analysis الذي ضمنه الأبجديات الأساسية والمنهجية للقراءة الموضوعية في دراسة مضامين وسائط الإعلام الحديثة، هذا بالإضافة إلى مؤلفاته البارزة في سيميائيات الكومبيوتر Computer Semiotics ولعل أهمها:

- الحاسوب كوسيلة اتصال The computer as a medium of communication
- السيميائيات التنظيمية: استخراج علم أنظمة الإعلام Organizational semiotics : Evolving of information system
- ماذا تستطيع أولا تستطيع السيميولوجيا أن تقوم به لتفاعل إنسان – كومبيوتر what semiotics can and can not do for HCI ?

على هذا النحو اتسمت السيميائيات الوسائطية الحديثة باتجاهها صوب مقاربة مختلف أنساق الاتصال الافتراضي، مساهمة بذلك في انفتاح الدراسات التواصلية والإعلامية على تصورات تحليلية جدلية وجهاز إجرائي مساير للخصوصيات المعرفية وتمثلات الوجود الإنساني المعاصر.

خاتـمة:

نخلص من خلال هذه الرحلة البحثية إلى إقرار مقولة التفرد الإبستيمي لمنهج التحليل السيميولوجي، وهو التفرد الذي نلتمسه في قدرته على وصف وتحليل ونقد كل أنساق الاتصال وكفاءته العالية في مساءلة تمظهراتها الدلالية ومقاصدها التداولية، فهو إذن من الناحية المعرفية جهاز إجرائي ساهم كثيرا في فهم التجليات الرمزية والسميائية والثقافية لبنية الأنساق أكانت لفظية أو غير لفظية.

إن إعتناء السيميائيات بمختلف الأنساق والوسائط، قد أدى وظيفيا إلى الإهتداء على عدة

مقاربات ساهمت على إختلافها في اختزال محصول اشتغال إستراتجيات: الإنتاج، التأويل والاستدلال وأكدت في المقابل على المحددات النظرية للتحليل السيميائي وهي: التوليد، التدليل والتعليل.

وهكذا حاولت السيميائيات ملامسة أسئلة سديدة ومبهمات عديدة لفهم الوقائع، وهو ما أهل التحليل السيميائي لأن يكون سلطة لا متناهية الحدود من يفقدها يفقد التحكم في الأشياء.

الهوامـــش والمراجـــع

1) Daniel Meaux: Analyse Sémiologique, Paris, Edition Gallimard, 2001, p.6

2) David Sperber & D. Wilson: La pertinence communication et cognition, Traduction: Gerschenfel A, Paris, Edition Minuit, 1999, p.11

3) Abraham Moles: Théorie structurale de la communication et société, Paris, Edition Masson, p.23

4) Brained Barron: methods for the analysis of the strategy of communication, Rootledge, London, 2004, p13.

5) Ibid, p15

6) McQuail Denis and Sven Windahl: communication models for the study of mass communication, Longman, London, 1993, p23

7) Ibid,p25

8) George Yule: discourse analysis, Cambridge University Press, Cambridge, 1996, p33.

9) Ibid, p34

10) Walterd Gruyter: discourse and communication, Rootledge and Kegan Paul, London, 1992, p17.

11) Ibid, p19

12) Claude Tiercelin: L'analyse de contenu des médias, Paris: Edition Gallimard, 2005, P 34.

13) Ibid., P 36.

14) Christian Pinson: Ecrits sur l'analyse de contenu, Paris: Edition Payot, 2004, P 57.

15) Jean Bourdeau: Introduction aux médias, Paris Montchrestien, 2001, P 22.

16) Claude Tiercelin: L'analyse de contenu des médias, op, cit, P 41.

17) Ibid., P 43.

18) Richard Ghiglione: «je vous ai compris: ou l'analyse des discours politiques», Paris: Armand Colin, 1998, p52.

19) Richard Ghiglione: «je vous ai compris: ou l'analyse des discours politiques», op. cit. p54.

20) لقد اعتمد تحليل المضمون على التصورات التقليدية المتعلقة بالأسلوبيات والدليل على ذلك أنه انحصر في تقديم الأبعاد الدلالية للتراكيب الأسلوبية: انظر للاطلاع على التحليل الأسلوبي القديم وبعض سماته ريفاتير (1983) Riffaterre

21) في طرحه لعلاقة السيميائيات بالعلوم الاجتماعية، ميز غريماس (1976) Greimas بين الخطاب العلمي والخطاب الإيديولوجي، فالأول يقوم على النسبية والاختلاف، بينما يتركز الثاني على الإطلاق والأحادية، وان أخذنا بهذا التمييز، قلنا إن خطاب تحليل المضمون الامبريقي أحادي في تأويله وايديولوجي يتوخى توجيه قراءته استراتيجيا

22) André Semprini: analyser la communication, paris: l'harmattan, 1999, p31.

23) Daniel Bougnoux: la communication contre l'information, Paris, hachette, 1995, p27.

24) اهتمت مجموعة الوسائط بجامعة غلاسكو (1976-1980) بالأخبار التلفزيونية

الصناعية لقناتي I.T.N وB.B.C وخلصت إلى أنها مرتبطة بالهيمنة الاقتصادية في المجتمع البريطاني، أما الدراسات الثقافية المعاصرة ببرمنغهام فتقول إن الوسائط، الإعلامية قوة ثقافية وإيديولوجية تابعة لموقع الهيمنة داخل العلاقات الاجتماعية وساعية إلى تمويل الإيديولوجيات الشعبية للجماهير (هال، هولسن، لوو ووليس) 1980 (Hall, Hobson, Low, Willis)، وأما مركز بحث الاتصالات الجماهيرية، فيقول بتأثير التلفزيون، في تغيير المواقف والآراء من خلال العلاقات التفاعلية بين الاتصال الجماهيري والتخطيط الاقتصادي (هالوران، البوت، وميردوك 1970) (Halloron, Elliot, Murdock)

25) نذكر من بين هؤلاء Claude Bremond, Patrice Pavis, Roland Bathes وغيرهم من رواد التحليلات السيميولوجية.

26) Daniel Meaux: analyse sémiologique, Paris: édition Gallimard, 2001, p15.

27) Ibid., p17.

28) Ibid., p18.

29) Jean Derrida: Sémiologie et grammatologie, La Haye, Mouton, 1992, P 17 .

30) Julia Kristeva: Recherches pour une sémiologie, Paris: Edition Seuil, 1969, p22.

31) Quivy Raymond et Van Campenhoudt Luc: Introduction à l'analyse de recherches sociales, Paris: Seuil, 1980, p216.

32) Louis Bardin: L'analyse de contenu, Paris: P.U.F, 1993, P 43.

33) Daniel Meaux: Analyse sémiologique, op, cit, P 37.

34) Ibid, P 39.

35) Daniel Meaux: Analyse sémiologique, op, cit, p40.

36) Ibid, p44.

37) George Bateson: sémiologie et analyse du discours, Paris, Edition Dunod, 2004, p23

38) Richard Bellour: Recherches sémiologiques, Paris: Edition Gallimard, 2001, P 15.

39) Ibid., P 17.

40) George Bateson: sémiologie et analyse du discours, op, cit, P 31.

41) George Bateson: sémiologie et analyse du discours, op, cit, p34.

42) Ibid., p36.

43) Ibid., P38

44) Ibid., P39

45) Yves Winkin: Anthropologie de la communication, paris: édition seuil,2001, P15.

46) Michèle Jouve: Rhétorique et sciences du signe, Paris: le seuil, 2000, P 77.

47) Ibid., P 78.

48) Mayra Frans : The contextual digital experience, London, Cambridge, 2007, p.4

49) Ibid, p.6

50) Ibid, p.8

51) Jonathan Dovey : Computer as a new media, Maiden read open university press, 2008, p.120